

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 4 (2009) : 352 - 372
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

واقع مناهج البحث: الواقع الجزائري
قراءة في الموضوع والإشكالية

أ/ بشير مولاي لخضر قسم الأدب العربي المركز الجامعي ـ غرداية

جاء في ديباجة هذا الملتقى، الملتقى الوطني الثالث حول مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية: "لا يقوم البحث الأكاديمي إلا على قاعدة "المنهج" فلا أهمية للمادة المعرفية إن لم توضع في إطار منهجي دقيق ينظمها ويحدد معالمها حتى غدت الأبحاث الحديثة تقيم بمدى التزامها المنهجي...إنما لكل علم مناهجه الخاصة به، تجمعها وحدة كلية يهتم بها علم المناهج "الميتودولوجيا" وتنقدها "الإبستيمولوجيا"

ومن شأن الفقرة السابقة أن تحيل على المضامين التالية:

1. أن البحث العلمي الأكاديمي الحديث منوط بقاعدة المنهج.
2. أن قيمة المادة المعرفية مرهونة بخضوعها لمنهج يضمن وضوحها ودقتها وسلامة عرضها وأصالة التحليل وصحة النتائج.
3. أن لكل علم مناهجه الخاصة به وهذا يستدعي ولا شك أن لا نسرف في محاولة استلهام أسس منهج ما لنطبقها خارج نطاقها الأصيل.

وفي ضوء ما سبق، فإنه من القائم أن يتناول البحث الأكاديمي الحديث مضمونا معرفيا نمطيا ومألوفا في دراسات سابقة ولكنه ينفرد عنها في زاوية النظر وفي استقلاله المنهجي وأدواته الإجرائية في التحليل بالقدر الذي يسمح بالوصول إلى نتائج نوعية لا توصف بأنها تكرار واجترار لما سبق، وفي جانب آخر سيترجح أن البحث الأكاديمي الراهن غير ملزم بأن يتصدى لمناقشة إشكالية عويصة، أي أن مكانته وقيمته لا تنبع من واقع

المضمون المعرفي الشائك لإشكاليته، بل بمدى الالتزام الصارم بالمنهج وتقنياته وأدواته بصورة تنتفي معها مظاهر الارتجال والتلفيق والحشو.

وإذا كان هذا هو الإطارَ النظريَ العام لملمح البحث العلمي الأكاديمي الحديث، وكانت تلك هي المعاييرَ في تقويمه ونقده، فالسؤال المطروح –ولا شك– على مستوى واقع مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر هو:أين يقع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر من هذه الشروط والمعايير؟وإلى أي مدى يستجيب لها؟وما هي العوائق التي تحول بينه وبين بلوغ الصورة النموذجية المرجوة؟وهل تعود أزمة البحث العلمي عامة وفي مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر إلى مشكلة المناهج؟

ولعلي أجد نفسي مطالبا في نطاق هذه المداخلة المتواضعة أن أشير ـ ولو بابتسار ـ إلى أن المناهج في البحث العلمي على اختلاف شعبه وفروعه لا تخلو من أبعاد نقدية لما سبقها من مناهج وطرق في الدرس والمعالجة، فالمنهج كيفما كان نوعه لا ينشأ هكذا اعتباطا بعيدا عن مقدمات تهيئ لظهوره ونشأته وتطوره، ولكنه على خلاف ذلك نتاج حركة علمية نشطة تهيمن بقضاياها المختلفة على الساحة في مجتمع أو أمة وتدعو مفكريها ورجالتها إلى نوع من الحوار العلمي الذي يفسح المجال أمام الاختلاف والتنوع بما يقود في النهاية إلى ظهور التيارات والمدارس الفكرية المختلفة حيث تتبنى كل مدرسة منهجا تراه الجدير في هذا الحقل العلمي أو ذاك. وسيترتب عن هذا أن نتساءل تساؤلا آخر لا يقل أهمية عن سابقيه:هل تقويم البحث العلمي وفق قاعدة المنهج هو معيار عام يحتكم إليه؟ أم أنه منوط بمناخ حضاري وعلمي خاص؟ وقبل الإجابة عن هذا التساؤل فلنحاول إن نرصد واقع البحث العلمي عامة وفي مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية خاصة، في الجزائر والوطن العربي حيث تبدو المعالم مشتركة ولا يكاد التفاوت يشمل سوى الجزئيات.

فلو أننا توقفنا عند إحصائيات 2008 لحصيلة سنة 2007 في نطاق البحث العلمي حسب الإحصائيات الرسمية لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي المنشور على موقعها في الإنترنت لأمكن أن نلاحظ كيف أن الأرقام تدل على حجم الجهد المبذول في هذا النطاق حصيلة 2007:[1]

شهادات في إطار التحضير:

4039 ماجيستر / طروحة دكتوراه 3266

المنتوج العلمي:

المنشورات الدولية 3046 / 1099 المنشورات الوطنية / 5039 الملتقيات الدولية

3054 الملتقيات الوطنية

1 تعداد الماجستير والدكتوراه بحسب التخصصات:

التخصصات		
	الماجستير	الدكتوراه
الرياضيات	237	196
الإعلام الآلي	193	137
الفيزياء	476	403
الكيمياء	354	391
العلوم الطبيعية	522	465
علوم الا رض	296	206
العلوم الطبية	13	24
الكيمياء الصناعية	147	156
الهندسة الالكترونية	530	445
الهندسة الميكانيكية	287	225
الهندسة المدنية	225	141
العلوم الاقتصادية	218	123
تاريخ	50	27
العلوم القانونية	48	27
علوم النفس والتربية	106	71

العلوم الساسية	8	5
علوم الإعلام	25	20
الأدب العربي	218	136
الثقافة الأمازيغية	0	0
اللغات الأجنبية	0	0
علم الاجتماع	38	28
الفلسفة	29	31
العلوم الإسلامية	19	9
المجموع الإجمالي	4039	3266

2 عدد المنشورات المنجزة حسب التخصصات:

التخصصات	المنشورات	
	الدولية	الوطنية
الرياضيات	314	88
الإعلام الآلي	127	8
الفيزياء	573	74
الكيمياء	386	66
العلوم الطبيعية	304	119
علوم الارض	153	98
العلوم الطبية	11	5
الكيمياء الصناعية	119	16
الهندسة الالكترونية	490	67
الهندسة الميكانيكية	160	35
الهندسة المدنية	106	42

العلوم الاقتصادية	89	124
تاريخ	27	33
العلوم القانونية	9	45
علوم النفس والتربية	47	60
العلوم الساسية	1	3
علوم الإعلام	10	10
الأدب العربي	80	135
الثقافة الأمازيغية	0	0
اللغات الأجنبية	0	0
علم الاجتماع	21	44
الفلسفة	16	17
العلوم الإسلامية	3	10
المجموع الإجمالي	3046	1099

3 عدد الملتقيات المنجزة حسب التخصصات :

التخصصات	الملتقيات	
	الدولية	الوطنية
الرياضيات	385	179
الإعلام الآلي	262	78
الفيزياء	704	465
الكيمياء	530	429
العلوم الطبيعية	670	462
علوم الارض	334	197
العلوم الطبية	18	17

الكيمياء الصناعية	209	143
الهندسة الالكترونية	793	262
الهندسة الميكانيكية	433	253
الهندسة المدنية	283	111
العلوم الاقتصادية	153	134
تاريخ	24	28
العلوم القانونية	27	42
علوم النفس والتربية	83	77
العلوم السياسية	1	2
علوم الإعلام	15	14
الأدب العربي	79	104
الثقافة الأمازيغية	0	0
اللغات الأجنبية	0	0
علم الاجتماع	18	41
الفلسفة	15	11
العلوم الإسلامية	3	5
المجموع الإجمالي	5039	3054

واقع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر والوطن العربي:

لعل من أبرز سمات العلوم الإنسانية والاجتماعية هو موضوعها المميز والشائك في الوقت نفسه، فجوهر اهتمام هذه العلوم هو رصد الواقع الإنساني وظواهره المعقدة، ومحاولة الإجابة دائما عن السؤالين التاليين:لماذا الواقع أو الظاهرة على هذا النحو؟ وكيف يمكن تغيير هذا الواقع إلى الوضع الأفضل؟ يصدق هذا الحكم على الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية... ومع أن التساؤل على هذا النحو في أي فرع من فروع

العلوم الإنسانية والاجتماعية يبدو مشروعا، إلا أن ما يقف عائقا هو طبيعة النظرة التي نحملها تجاه هذه العلوم وأهميتها في حياتنا في الجزائر وفي الوطن العربي على السواء، فالشائع أنه على المستوى الرسمي والعام ينظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية في البلاد العربية على أنها ثانوية وضرب من الترف الذي لا طائل من ورائه ومثل هذه النظرة الاستعلائية تجاه هذه العلوم كرست على الدوام تصورا خاطئا مؤداه أن العلوم الدقيقة هي وحدها سبيلنا إلى الخروج من دائرة التخلف الحضاري الذي نرزح تحت وطأته منذ قرون. ويكفي للتدليل على صحة ذلك أن نسجل هنا كيف أن مراكز البحث التابعة لجامعة الجزائر لا تشمل سوى عدد محدود من الفروع الخاصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

وهذا النوع من التجاهل لمكانة العلوم الإنسانية والاجتماعية كانت له تبعاته التي ما تزال تلاحق البحث العلمي في هذه العلوم وتحول دون البلوغ به مستوى ما يقدم في الجامعات في الدول المتمدنة.

فالثابت اليوم أن البحث العلمي الناجح والمثمر هو ذاك الذي تشرف على تمويله وتشجيعه مؤسسات ذات صلة وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين: "والمؤسسة البحثية كما نعلم تتكون من كادر، شروط عمل حر، رأسمال، تقنية اتصالات حديثة، ثم فضلا عن ذلك إقامة علاقة بين مؤسسات البحث ومراكز اتخاذ القرار، وأقصد بمراكز اتخاذ القرار كل هيئة معقود عليها حل مسائل ذات علاقة بمشكلات المجتمع ككل، وتحتاج إلى تدخل العلوم الإنسانية لحل هذه المشكلات"[2]ومعنى هذا أنه حتى لو توافر في واقع الحياة نشاط نوعي للبحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية فإن ما تتوصل إليه تلك البحوث سيبقى دون قيمة تذكر ما لم تبن الدولة نفسها سياساتها في هذا المجال أو ذاك على النتائج التي قادت إليها الأبحاث العلمية المتخصصة؛وإذا كان كلام من هذا القبيل يساق على نحو عام؛فما الذي يمكن أن ينتظر في مثل حالنا الراهنة؟

ومن التبعات المشاهدة والمؤلمة أيضا نقص الميزانية المخصصة للبحث العلمي وهي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية أظهر وأبرز، إذ يقع العبْ الأكبر على الباحثين في تمويل مشاريعهم والصمود بها أمام ما يكابدونه من ضيق لا يؤهلهم غالبا للاستمرار في العمل

البحثي، ويكفي أن نسجل هنا حسب إحصائيات منظمة اليونسكو:"أن نسبة الإنفاق على البحث العلمي بالنسبة للناتج ا لمي لم تتعد 0.5 في الأقطار العربية كافة لعام 1992 وهي نسبة ضئيلة عند مقارنتها بمثيلاتها في السويد وفرنسا حيث بلغت 29./. و27./. على التوالي[3].

أما إحصائيات سنة 2004 لنفس المنظمة العالمية فتقول إن الدول العربية مجتمعة خصصت للبحث العلمي ما يعادل 1.7 مليار دولار فقط أي بنسبة 0.3./. من الناتج القومي الإجمالي... في حين نلاحظ أن الإنفاق على البحث العلمي في "إسرائيل" (ما عدا العسكري) حوالي98 مليارات شيكل أي ما يوازي 2.6./. من حجم إجمالي الناتج القومي في عام 1999[4].

وقد غلبت مهام التدريس على جل أساتذة الجامعات في الوطن العربي فلم يتهيأ لهم أن يتفرغوا للبحث العلمي كليا بالقدر الذي يتيح نوعا من المواكبة التي تؤهلهم هم قبل غيرهم أن يكونوا معالم فارقة في ميادين تخصصاتهم وليسهروا بدورهم على تأطير نخب تثري البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية وتنهض به ولا أدل على هذا الغياب مما نشرته إحدى الدراسات فقد أظهرت"...أن ما ينشر سنويا من البحوث في الوطن العربي لا يتعدى 15000 بحث...ولما كان عدد أعضاء هيئة التدريس نحو 55000 فإن معدل الإنتاجية هو في حدود 0.3./.[5]. ويخلص الدكتور...إلى أن أهم الأسباب التي تقف عائقا أمام البحث العلمي في العلوم الإنسانية تتمثل في:

1. اعتياد السلطة في الوطن العربي تاريخيا على عدم الاكتراث بأهمية العلوم الإنسانية ونتائج أبحاثها في تعاملها مع مشكلات المجتمع والأمة.

2. ضعف المخصصات والميزانية الممنوحة للبحث العلمي وخاصة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

3. عدم وجود استراتيجية واضحة المعالم في مجال البحث العلمي. وقد أدى ذلك إلى النزيف المتزايد والمستمر للأدمغة العربية.

4. هشاشة الطبقة الرأسمالية الجديدة وجهلها.والتي تحول صفاتها هذه دون توظيف أي جزء ضئيل من أرباحها للبحث العلمي أو للعمل الثقافي عموما.

5. العوز المادي الذي التي تعيشه الفئات العاملة في حقل العلوم الإنسانية، مما لا يسمح لها بالتفرغ للبحث العلمي بل يفرض عليها عوزها المادي الانهماك في توفير سبل استمرار الحياة اليومية[6]. ويكفي أن نلفت هنا إلى عبارة الدكتور أبو القاسم سعد الله وهو من لا ينكر تاريخه ورسوخه في البحث العلمي أن نلفت إلى عبارته التي تلخص واقع البحث العلمي في الجزائر حين يقول:"إن البحث العلمي في الجزائر يعتبر معجزة"[7].

كانت الفقرات السابقة عبارة عن محطات موجزة حاولت أن ألخص من خلالها واقع البحث العلمي، وفي العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر والوطن العربي، مقدرا أنها خطوة أولى يجب أن تسبق على كل حال الحديث عن واقع مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر.

ثانيا: مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال الواقع الجزائري: لقد أثرت في مقدمة هذه المداخلة سؤالين اثنين أولهما: وهل تعود أزمة البحث العلمي عامة وفي مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر إلى مشكلة المناهج؟ والثاني هو: هل تقويم البحث العلمي الحديث وفق قاعدة المنهج هو معيار عام يحتكم إليه؟ أم أنه منوط بمناخ حضاري وعلمي خاص؟ وأرجأت الإجابة عنهما كليهما إلى موقف تال أحسب أن هذا المجال هو مجاله.

حين تقدمت بملخص هذه المداخلة لإدارة هذا المركز الموقر، في نطاق ا ور الخامس من محاور هذا الملتقى الذي يعالج واقع مناهج البحث،: الواقع الجزائري، الواقع العربي، الواقع الإنساني مختارا الواقع الجزائري كان عنوان ذلك الملخص هو:واقع مناهج البحث، الواقع الجزائري (قراءة في الموضوع والإشكالية) متطلعا بذلك إلى محاولة رصد واقع إشكاليات وموضوعات البحوث في هذا الفرع العلمي الهام، أصالتها وجدواها على البحث العلمي ودورها في إثراء البحث وقضاياه ومساهمتها في إضاءة وبلورة المسائل والمواقف المتصلة به بالقدر الذي يغدو به كل بحث بصمة وجهدا نوعيا في بابه من شأنه أن يمثل قيمة مضافة

تتجاوز حدود التقليد والحشو والنمطية، ويتجاوز به البحث الغاية النفعية القريبة المنحصرة في اجتياز مرحلة دراسية والفوز بشهادة جامعية على أي نحو كان؛ وطلبا لتحديد مجال المداخلة في نطاق الحديث عن واقع مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجزائر فأنا أوجه أساتذتي الأفاضل إلى حيثيات ثلاث:

أولا: أزمة التنميط في الثقافة العربية المعاصرة.

ثانيا: نمطية الكثير من إشكاليات وموضوعات البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في المعاهد والجامعات الجزائرية وسأختار هنا –وبحكم التخصص لا غير– الرسائل المقدمة لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها إن في الجزائر أو في الوطن العربي وكان جل اعتمادي في هذا المبحث على مجلة اللغة والأدب التي يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر في عددها السابع سنة 1415هـ/1995م والذي خصص لفهرس الرسائل الجامعية للشعبة الأدبية في الوطن العربي بعد أن كان العدد السادس منها قد خصص للشعبة اللغوية.

ثالثا: نمطية المناهج الموظفة في تلك الرسائل وخلوها من قيمة مضافة في البحث الأدبي.

أولا: أزمة التنميط في الثقافة العربية المعاصرة: قديما قال عنترة بن شداد العبسي:

هــل غــادر الشــعراء مــن مــتردم أم هــل عرفــت الــدار بعــد تــوهم؟[8]

وجاراه كعب بن زهير في هذا الاتجاه حين قال:

مــــا أرانا نقــــول إلا رجيــــعا ومعادا من قولنا مكرورا[9]

فالشاعران كلاهما يسلمان بأنهما مقلدان وأن أبوب القول قد سدت أمامهما فما من معنى إلا وسبقا إليه، وحين نطالع الشعر العربي القديم نلاحظ اطرادا لأنساق وأنماط تتكرر باستمرار في المدح والفخر والهجاء والغزل وسواها من فنون الشعر العربي، وهذا ما حذا بالمتنبي أن يرسل زفرات السخرية والتذمر بقوله:

إذا كان مدح فالنسيب مقدم أكل فصيح قال بيتا متيم؟

ونعى أبو نواس على الشعراء في عصره تشبثهم بتقليد الوقوف على الأطلال في

سخرية بالغة حتى صارت أبياته في ذلك مضرب مثل فمن ذلك قوله:

عاج الشقي على رسم يسائله   وعجت أبحث عن خمارة البلد

يبكي طلل الماضين من أسد   لا در درك قل لي من بنو أسد[10]

ومن المؤسف الإقرار بأن هذا الملمح انتقلت عدواه من النصوص الإبداعية إلى الدراسات والبحوث الجامعية نفسها وغدا مشهدا مهيمنا بقوة تكاد تدعو إلى اليأس من انحساره فضلا عن زواله واندثاره، ومثل هذه الصورة هي التي حذت بالدكتور سليمان العطار أن يرى في "النمط" اتجاها عقليا يسيطر على العقلية العربية ليقول في هذا الصدد:"والتنميط اتجاه عقلي، يكاد يتحول إلى فسيولوجيا(وظيفية) للمخ عند الإنسان القديم الذي لا زال الإنسان العربي ينتمي إليه، وهذا يعني أنه أشبه بالإدمان. إنني أضرب مثلا واحدا –ولدينا مئات الأمثال– من حياتنا المعاصرة. في "يوم ما" أقام أحد الأثرياء حفل زفاف في أحد الفنادق، فتبنى كل المدعوين نفس الأسلوب في إقامة حفلات زفاف ذويهم، والمدعوون لكل حفل زفاف من حفلات هؤلاء يفعلون نفس الشيء حتى تحول الزفاف إلى نمط يملأ فنادقنا ونوادينا بضجة قبيحة. واختفى النمط الشعبي. إن التكاليف الباهظة لهذا الزفاف لا توقف سلطوية النمط المستجد رغم الأزمة الاقتصادية الخانقة. إننا نحول الأنماط إلى حبال نلفها حول رقبتنا فتظهر على وجوهنا أعراض الاختناق المقززة والمخيفة"[11]

ومن المؤسف أيضا أن تنتقل عدوى التنميط والمسايرة إلى فضاءات ومنابر كان يعول عليها في انتشال الفكر العربي من مأزقه وإقالة عثرته فيحتضن الباحث في القرن العشرين وما بعده أطروحات عفا عليها الزمن يرددها في ارتجال وعفوية دونما نظر أو تأمل، أو يساير نمطا جديدا اكتسب نوعا من الريادة وفي سياق نقد هذا المشهد يقول الدكتور سليمان العطار:"نفس الشيء يحدث في مجالات علم الأدب على مستوى الإبداع والنقد. نتبنى أنماطا سائدة سلطوية تتسع دائرتها والكل يدخل فيها دون فهم أو مناقشة.إن من يراجع رسائل الماجستير أو الدكتوراه مثلا: –في أقسام اللغة العربية– يجد أحد العناوين يظهر فجأة ثم يتكرر دون رحمة أو هوادة ردحا من الزمان في كل مكان، ويستطيع القارئ أن يجرد كل رسالة من بعض أسماء الشخوص والأماكن فتصير الرسائل جميعا رسالة واحدة. إن شاعرا يبدأ

قصيدته بلفظة"عيناك.." فتبدأ آلاف القصائد بنفس اللفظ. إن نمط الارتجال يسيطر على الجهاز العصبي ووظائف المخ بشكل يجعل الإفلات من رؤيته التنميطية التابعة أمرا بالغ الصعوبة يحتاج إلى مجهود ضخم من علماء علم"النفس الاجتماعي". وغيرهم من المصلحين والمفكرين..."[12].

ومثل هذا التواتر على المتابعة وا ـاكاة يتوهمه الفرد العربي ضربا من المواكبة والمعاصرة في حين أنه لا يعدو كونه صورة للخضوع والمساير السلبية، فالمجتمع حين يعجز عن إنتاج المعرفة يصبح مستقبلا سلبيا يكتفي بالاستهلاك دون انتقاء وقدرة على ا ـافظة على مقوماته التي تبدأ في الذوبان والتلاشي أمام زحف الثقافة الوافدة وقيمها.

ثانيا: نمطية إشكاليات وموضوعات البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية(اللغة العربية وآدابها نموذجا):

حين نتصفح بعض عناوين رسائل الماجستير والدكتوراه في الجزائر والوطن العربي في هذا الفرع من العلوم الإنسانية نخلص إلى نتيجة مؤداها أن تلك البحوث لا تنطلق من واقع إشكالات معرفية عميقة في علاقتها بالأدب العربي وتاريخه وفنونه وتطورها وقوانين ذلك التطور ونتائجه العميقة وآثارها البعيدة في مسيرة هذا الأدب وموقعه من التراث الإنساني، وإنما الذي يغلب عليها هو التناول الجزئي الذي يقف عند حدود المعالجة المبتسرة والمقتضبة وكانت النتيجة أن عجزت تلك البحوث عن التأسيس لنظريات معرفية، وهو ما يفسر افتقار حياتنا الثقافية إلى مدارس فكرية في الأدب وفي غيره من مجالات المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وللتأكد على أصالة هذا الطرح في تقويم تلك الأعمال يكفي أن نستعرض بعض العناوين لنخلص إلى النتيجة السابق ذكرها:

1. فالموضوع في كثير من الأبحاث لا يوحي بقضية جوهرية مستوحاة من راهن الباحث وقضايا البحث العلمي في عصره أي أنها تفتقر إلى عنصر المواكبة.وأبسط مظهر يؤكد هذا الرأي أنك يندر أن تجد بحثا ربع مراجعه بلغة أو لغات أجنبية، ويندر أن تجد بحثا اعتمد على نسبة **20**./. من المراجع المترجمة حديثا.وقد يكون غريبا أن نسجل هنا ما أورده الدكتور عبد

القادر سعيد حين أشار إلى أن الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون جتى الآن[هو] 10000كتاب وهو يوازي ما تترجمه إسبانيا في عام واحد[13]!وكيف أن 330 كتابا التي تترجم سنويا في الوطن العربي لا يمثل إلا خمس ما تترجمه اليونان.[14]

2. العناوين خاضعة لنسق أي نمط وكأن هناك قوالب جاهزة ولا يتعدى جهد الباحث عملية تكييف العنوان مع القالب.

3. كثير من العناوين تبدو مكررة إلى درجة التطابق أحيانا بما يعني أنها لا تقدم أي جديد وإذا كانت العناوين فيما مضى هي المكررة، فقد بتنا نجد بعض الانتهازيين اليوم يكتفون بتغيير العنوان ويسطون على البحث كله ويدّعونه لأنفسهم ويتقدمون للمناقشة مع ذلك آمنين مطمئنين وكأنهم الموعودون بقوله تعالى﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾15.

4. يقدم كثير من الطلبة في مرحلة الماجستير على توسيع مذكرات تخرجهم التي أنجزوها في السنة الرابعة، وقد لا يكون هذا الأمر معيبا إن كان الطالب أنطلق في مشروعه الجديد من حيثيات علمية مشروعة وأصيلة، ولكن الخشية أن يغدو عمله مجرد تمطيط.

ولا بأس في هذا المقام أن نستعرض بعض عناوين تلك الرسائل لنلاحظ إلى أي مدى تتجسد معاني النمطية والتقليد ويغيب الابتكار والتجديد :

فمن الموضوعات اللغوية:

- شرح الإعراب عن قواعد الإعراب للكافيجي المتوفى سنة 879 هـ فقد حقق الكتاب ست مرات فكان أن حققه:

1. علي بن عبد الله العنبكي، جامعة المستنصرية(ماجستير).
2. محمود فجال، جامعة الإمام مُحَّد بن سعود الإسلامية– الرياض. (ماجستير).
3. محمود بن أحمد السويد، جامعة دمشق(ماجستير).
4. علي الهادي شونة، جامعة الفاتح – ليبيا(ماجستير).
5. فتح الله صالح علي المصري، جامعة الأزهر(دكتوراه).

6. فخر الدين قباوة، حققه ونشره في دار طلاس للدراسة والترجمة والنشر عام 1989[16]. وإذا ثبت أن أيا من هذه الجهود لم يزد عما سبقه فما فائدة التحقيق لمؤلف واحد ست مرات؟

وهذا الملمح في الوطن العربي ليس خاصا بالشعبة اللغوية ولكنه ماثل في الشعبة الأدبية أيضا ويكفي للاستدلال على ذلك أن نتوقف عند عنوان هو "المثل في القرآن الكريم" لنراه يطرد في عدة رسائل كما في:

- **المثل في القرآن الكريم، دراسة فنية مقارنة، /لأسعد كسار . جامعة حلب (رسالة ماجستير).**
- **المثل في القرآن الكريم، لعلي مُحَّمد مهران، جامعة القاهرة(ماجستير) 1965.**
- **المثل في القرآن الكريم، لعبد الفتاح مُحَّمد يوسف، جامعة الإسكندرية (ماجستير)1976.**
- **المثل في القرآن الكريم والكتاب المقدس، لعبد الرحمن محمود عبد الله جامعة بغداد (ماجستير) 1971[17].**

فإذا ما عن لنا بعد ذلك أن نستجلي حضور هذا الملمح في واقع الرسائل الجامعية في نفس الشعبة على مستوى الجامعات الجزائرية، فالحال لا تبدو مختلفة كثيرا عن نظيراتها في الوطن العربي، ومن صور ذلك :

1. رسالة ماجستير بعنوان: السمات الحضارية في شعر النابغة الذبياني، جامعة باتنة، الجزائر 1984. وقبل هذا التاريخ بسنتين نوقشت رسالة دكتوراه في جامعة عين شمس بمصر وكان العنوان: "السمات الحضارية في شعر الأعشى: دراسة لغوية حضارية، فالعنوانان يكادان يتطابقان ومن غريب الاتفاقات أن العنوان الأول يكاد يطابق رسالة ماجستير للدكتور ابن حويلي ميدني عن جامعة الجزائر وهو "الألفاظ الحضارية في ديوان النابغة الذبياني" كما أن للدكتور رتيمة مُحَّمد العيد رسالة ماجستير في هذا الموضوع بعنوان: المفردات الحضارية في شعر"عمرو بن كلثوم".

2. الشخصية في الرواية الجزائرية(1970– 1978)جامعة وهران،1981.دبلوم الدراسات المعمقة

3. وبعد هذا التاريخ بأربع سنوات (1985 يتقدم الباحث نفسه بأطروحة ماجستير بعنوان يكاد يكون مطابقا أمام الجامعة نفسها، وهو:الشخصية في الرواية الجزائرية (1970 – 1983)

4. القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد جامعة وهران 1984 رسالة ماجستير

وبعد هذا التاريخ بسبع سنوات 1991 تناقش أمام الجامعة نفسها رسالة ماجستير بعنوان مشابه هو: القيم الفنية والجمالية في شعر محمود درويش.

5. ابن شهيد أديبا وناقدا دكتوراه الدرجة الثالثة مقدمة أمام جامعة وهران وقبل هذه الأطروحة قدم الباحث نفسه رسالة دكتوراه أمام جامعة الجزائر بعنوان" ابن وآراؤه النقدية"لنيل دبلوم الدراسات المعمقة* .

وفي حدود أن الغاية ليست منصبة على الإتيان على جميع الرسائل من خلال عمل إحصائي يغطي مرحلة ومنية معينة بقدر ما هي محصورة في التمثيل فقد أكتفي بما سبق ولغيري أن يثير هذا الجانب من خلال بحث أكاديمي موسع وشامل، وتتمة لهذا المبحث لا بأس أن نشير أيضا أن هناك ملمحا لافتا وهو تواطؤ الكثير من البحوث على كلمة أو كلمات مفتاحية نمطية في العنوان مثل: اتجاهات الرواية العربية.... فقد غطى هذا العنوان ثلاث رسائل في فترة لا تتجاوز خمس سنوات تقريبا، وفي الوطن العربي غطت الرسائل المبدوءة بكلمة أثر46 رسالة ما بين سنتي 1952 حتى 1987. أما الرسائل المفتتحة بالصورة الشعرية عند أو في بما في ذلك الرسائل المناقشة في الجزائر فقد بلغت 7 رسائل ما بين 1969 و1988، ووصل عدد الرسائل المفتتحة بالصورة الفنية في ما بين1969 حتى1990 إلى اثنتي عشرة رسالة ويعتبر هذا العدد نسبيا في حدود أن هذا العنوان وسابقه الصورة الشعرية ما يزالان يتكرران في كثير من البحوث وبلغ عدد الرسائل المفتتحة ب"المرأة في...." 19 رسالة ما بين1949 و1985. وأذكر أن رسالة ماجستير نوقشت أمام معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر سنة

2007وكان عنوانها المرأة في شعر نزار قباني وهو عنوان لرسالة نوقشت في جامعة تونس سنة 1975 لنيل درجة الكفاءة في البحث العلمي. ورغم أن هذه الإحصائيات لا تبدو حديثة كل الحداثة إلا أنها يمكن أن تعطي صورة تقريبية عن شيوع أنماط واطرادها، ولست أريد بحال من الأحوال أن أقلل من قيمة تلك البحوث ولا أن أطعن في نزاهة أصحابها، بقدر ما أنني أحاول في هذه الوقفة أن أنبه إلى سطوة النمط في حياتنا العلمية.

إن جامعاتنا تخرج أعدادا كبيرة من الطلبة المتحصلين على شهادات الماجستير والدكتوراه كل عام في مختلف الفروع بما فيها العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولكن إلى أي مدى يستفيد المجتمع من تلك البحوث ؟ أنسلم بأن خلل تلك البحوث مسجل على صعيد المنهج؟أعتقد إلى حد بعيد وقد توافقونني الرأي أن المشكلة تتجاوز حدود المنهج لتمس منظومتنا العلمية وإستراتيجيتنا في البحث العلمي، في حدود أننا لم نوفق بعد في الجمع بين المضمون النوعي للبحث ومقتضيات المرحلة الدراسية، ولم نضع خطة واضحة المعالم لتفعيل دور الجامعة في نهضة المجتمع من خلال ما تقدمه نخبها ويكفي أن نسجل هنا بمرارة بالغة كيف أنه لم يتح لأي جامعة جزائرية أو عربية أن تكون في عداد الجامعات الأولى أو حتى الجامعات السبع الأولى في العالم.

وحين يفتقد طلبتنا الشعور بجدوى ما يقدمونه فقد يركن كثير منهم إلى الإحباط ويستسلمون لليأس الذي يدفعهم إلى عدم الجدية والمسالمة أو الانتهازية والغش أحيانا.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن مدى أولية المنهج في تقويم البحث العلمي الأكاديمي الراهن، وفي مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل خاص، إن جل الرسائل الجامعية اليوم تفصح عن المنهج الذي اعتمدته بصورة صريحة في عنوان الرسالة أو في ثنايا مقدماتها، وما من شك أن كثيرا من الطلبة يتفوقون في السيطرة على المنهج وتوظيف أدواته في التحليل والمناقشة بالقدر الذي يوصلهم إلى استخلاص نتائج ذات بال، ولكن السؤال الذي يطرح: لماذا لا ينعكس ذلك النجاح في الواقع العلمي والعملي؟ فليس هناك بحوث يتجاوز صداها مدرجات الجامعة وأروقتها لتثير سجالا فكريا يستمر لفترة من الزمن ولو لمدة أسبوع، داخل الوطن فضلا عن خارجه، ولا يكاد يحدث أن ترشح جامعاتنا بحوثا نوعية على صعيد

المضمون والمنهج تطبعها على نفقتها لتغدو مراجع للطلاب والباحثين على السواء، وليس هناك قاعات تغص بالمتعطشين للعلم والمعرفة أثناء المناقشات اللهم إلا من يتوافدون من أصدقاء الطالب ومعارفه بداعي المجاملة غالبا.

ولأن كثيرا من طلبتنا في مجال درس الأدب ونقده مثلا ألفوا الاهتمام بالبعد التطبيقي للمنهج فهم لا يعنون بنظريته وأبعاده الفكرية والفلسفية التي يقوم عليها، ولأجل ذلك فما أكثر صور التناقض المشاهدة ويكفي للتدليل على ذلك أن نسجل هنا أن المنهج نفسه راح يكتسي صبغة النمط فنطالع في الدراسات الأدبية والنقدية مثلا عبارات:دراسة معجمية، دراسة دلالية، دراسة أسلوبية دراسة تداولية، دراسة بنيوية... أو بالتوقف عند شاعر أو كاتب أو مصدر بالقول امرؤ القيس أو ابن المقفع أو سورة كذا نموذجا وهلم سحبا، ومع أنه يسوغ لهذا المنوال في التناول بالتخصيص الهادف –وأنا أتفق مع هذا التوجه إلى حد بعيد– إلا ما يطبع هذا الشكل من العناوين من تكرار يوحي بأننا فقدنا القدرة على الابتكار، وحين تعطى الأولية للمناهج فقد يكون ذلك على حساب النص نفسه أحيانا، إن المصطلح في المنهج الموظف في الدراسة ذو دلالة وأهمية بالغة، وهو إن لم يكن وليد الثقافة التي ينتمي إليها الباحث فقد يسرف هذا الأخير أيما إسراف في تطبيقه على محتوى النص ولا أقل في هذا الصدد من التمثل بتهافت الكثير من الباحثين على تطبيق مناهج نقدية معاصرة على نصوص تراثية قديمة طلبا للتجديد والاكتشاف وقد يتعسف الباحث في مثل هذه الحالات لأنه ينطلق من قصور في فهم المصطلح على نحو ما هو عليه في بيئته وثقافته التي أنتجته ولأضرب لذلك أمثلة "أنظر إلى مصطلح **Ecart** فقد ترجم بالمعاني الآتية: الفاصل، الاتساع، البقاء، الفارق، العدول...القارئ يطرح السؤال:هل هذه المعاني تؤدي وظيفة متماثلة أو متشابهة في بناء النص النقدي؟ الجواب كلا...والدليل على ذلك أن المعنى الأول يشير إلى الحد الذي يوضح الفروق بين نص وآخر، والثاني يشير إلى انتشار مجموعة من صفات معينة، والثالث يشير إلى ثبات مجموعة من خصائص ثابتة فيه، والرابع يشير إلى عنصر أو عناصر المخالفة والخامس يشير إلى هجر القواعد المتبعة في معالجته"[18] فهل نضمن سلامة التحليل النقدي في ظل هذه الفوضى والاضطراب في تعريب المصطلحات ؟ إن الطالب الباحث في

الجزائر أو في غيرها من البلاد العربية قد يحمل مدلول المصطلح الوافد على ما يختزنه في ثقافته من دلالات معرفية ولغوية وقد يتنكب الجادة ويبتعد عن الدلالة الأصلية فتكون الكارثة.

ولنتوقف عند مصطلح آخر شائع في الدراسات النقدية المعاصرة، وما أكثر البحوث الجامعية التي خاضت فيه وتبنه وهو مصطلح "التفكيكية" "فهو نقل بمعنى التشريحية تارة والتفكيكية تارة أخرى، والتشريح **Anatomie** كما هو معلوم علم يدرس التركيب الداخلي للأجسام الحية، والتشريح في اللغة تحليل المادة تحليلا دقيقا، أما في مضمار النقد فمعناه غير محدد فهل يعني تحليل التركيب الداخلي للنص؟ إذا كان ذلك هو المقصود فإن هذا المعنى أقرب إلى النقد البنيوي الشكلي، لأنه يقوم بتحليل النص من زاوية بنائه ويركز اهتمامه على تركيبه الداخلي.بينما التفكيك في اللغة يعني قطع الروابط بين عناصر النص وبعضها وفي مضمار النقد يعني حل وحداته وإعادة تشكيلها وإعادة إنتاجها وفق معايير إنشائية وصفية... والمعنى القريب من الجوهر هو التفكيك وليس التشريح"[19].

ويزداد هذا الأمر خطورة في مثل هذا الوضع حين تطبق بعض تلك المناهج على نصوص تراثية قديمة دون قدرة على تشرب المصطلح واستيعابه على النحو المرجو بالانطلاق من افتراضات خاطئة تتجاهل في إصرار علاقة النص الأدبي وتشكله بمحيطه الخارجي وبيئته الثقافية التي أنتجته وصاحبه، وتكتفي في هذا الاتجاه بالسير على هدي منهج واحد في الدراسة بحجة التخصيص، وهذا في نطاق الأدب ودرسه يبدو منافيا لطبيعة الأشياء لأن الأدب ظاهرة نامية متطورة وأدوات الإبداع الفني ومدلولاتها المعرفية، وأساليبه وأجناسه بدورها خاضعة لهذا المنطق، والمفاهيم النقدية وأدواتها الإجرائية لا تشذ عن هذه القاعدة، فقد يتسق أن ندرس أدونيس دراسة أسلوبية لأنه سليل مدرسة الحداثة، جار على أساليبها في فهم وظيفة الأدب وجمالياته وهو ما يتيح أن تتجلى رموز هذه المدرسة في أدبه ولكن من غير المنصف أن نفرض نفس المنهج في دراسة الشنفرى مثلا لسبب بسيط جدا وهو أن الأديب ينتمي إلى مدرسة أو عصر وهو يكتب بأدوات المدرسة أو العصر الذي ينتمي إليه.وافتراض أدوات أو قيم أو مفاهيم منهج نقدي ظهر في القرن العشرين في أدب العصر

الجاهلي مثلا قد يبدو ضربا من الشطط.ومع ذلك تجدنا نسوغ هذا التوجه في استخدام المناهج النقدية المعاصرة في جامعاتنا مهملين تبعاتها الثقافية والمنهجية على السواء.إن للمنهج في الأدب أن يجيب عن: ماذا قال النص في بنية العميقة وعلى مستواه الدلالي المفتوح، وكيف قال؟ وكيف أثر؟ ولكن من المستبعد ولا شك أن يقعد المنهج للأدب ويضع له دستورا يسير عليه ويلزمه به وإلا لكنا عدنا إلى النقد الكلاسيكي البائد.وربما كان من الأوفق في نطاق الدراسات الأدبية أن لا ننطلق من منهج نختاره ونسعى إلى تطبيقه لنختار بعد ذلك إشكالية له، بل العكس هو الصحيح بحيث توجه الإشكالية الأصيلة إلى المنهج، هذا في جانب وفي جانب آخر، جدير بالمنهج أن يوقفنا على المتغير الذي قاد إليه سواء تعلق الأمر بدراسات متزامنة معه ووظفت المنهج نفسه، أو بدراسات غايرته اشتركت معه في الموضوع وخالفته في المنهج المتبع وبهذا الشكل تتجلى فاعلية المنهج لأن اختياره منذ البداية كان اختيارا واعيا وهادفا لا عشوائيا مرتجلا، وأخشى أن أقول أن بعض بحوثنا يطالها القصور من هذا الجانب، ولذا فقد يغدو وجيها أن يطالب الباحث بالإحالة على الأهداف التي ينشدها باختياره لهذا المنهج دون غيره.

وأحسب أن أفضل خدمة يمكن أن يقدمها أي منهج في العلوم الاجتماعية والإنسانية هي أن يجيب: أين يقع هذا المشهد مهما كان مجاله من الحقيقة العلمية المنشودة؟ طالما أن أي بحث ما هو سوى لبنة في صرح البحث العلمي الإنساني، بشرط أن يقول في النهاية دائما و:ويبقى هذا مجرد رأي.

لقد سعيت من خلال هذه المداخلة أن أتوقف عند شأنين في البحث العلمي هما:الإشكالية والموضوع وأن ألفت إلى بعض أوجه التقصير في هذا الجانب، وليس لي من غاية وراء ذلك إلا أن نعمل على تجاوز الطابع المدرسي الكلاسيكي لبحوثنا الجامعية، وهو الطابع الذي يغلب عليه الارتجال والتنميط ويخلو من قيمة مضافة. ويظل حبيس أهداف قريبة ولو كان الأمر على خلاف ذلك لكنا وجدنا –وما أبرئ نفسي– حملة الشهادات العليا –إلا قلة منهم– لا يركنون إلى الراحة أو قل الكسل بعد فراغهم من مناقشات رسائلهم خصوصا وقد زعمنا أنهم استفادوا من الخبرة المنهجية في إعداد الرسائل والبحوث وتحرير المقالات، فلا

يكاد أحدنا يستطيع أن يستشهد في هذا المقام بمجلات علمية دورية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية تستمر دون انقطاع بل إننا لا نستطيع أن نعاين هذا المشهد حتى في جرائدنا على كثرتها وتنوعها. ولست أحمل المسؤولية هنا لجهة واحدة ولكن المسؤولية مشتركة وعامة.

أعتقد أن أولية المنهج في البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية مقولة يمكن أن تقبل في نطاق المعايير الأكاديمية البحتة للبحث العلمي، ولكنها لا تستطيع بحال أن تكون المقياس الوحيد في ترشيح بحث ما ليحكم له بالتفوق والأصالة، لأنه حين يتعلق الأمر بأمة تبني نهضتها وتعتمد على جامعاتها في تحقيق هذه الغاية فحري بالعلوم الإنسانية والاجتماعية في هذه الحالة أن تعنى بقضايا تلك الأمة وتبحثها. وعلى الجامعة أن تعي هذا الدور فتؤسس لاستراتيجية هادفة تحتضن البحث العلمي الجاد وترعاه، وتضع المعايير الشاملة التي توفق بين رسالتها نحو الأمة والوطن وبين دورها الإنساني العام في خدمة العلم والمعرفة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش:

[1] وزارة التعليم العالي والبحث العلي،م1http:www.google.com

[2] محمد سعيد ياقوت، باحث في العلوم الإنسانية، المجلة الثقافية،ص،http:www.google.com1

[3] محمد سعيد ياقوت،باحث في العلوم الإنسانية، المجلة الثقافية،ص،http:www.google.com1

[4] محمد سعيد ياقوت،باحث في العلوم الإنسانية، المجلة الثقافية،ص،http:www.google.com1

[5] محمد سعيد ياقوت،باحث في العلوم الإنسانية، المجلة الثقافية، ص2 http:www.google.com

[6] محمد سعيد ياقوت،باحث في العلوم الإنسانية، المجلة الثقافية، ص 2 http:www.google.com

[7] عبد القادر سعيد،ناقوس الخطر يدق،ص2 http:www.google.com

[8] ديوان عنترة،ص:15

[9] ديوان كعب بن زهير،ص:31

[10] ديوان أبي نواس،

[11] سليمان العطار، نحو منهجية جديدة في دراسة تاريخ الأدب العربي،ص:6،7.

[12] المرجع السابق،ص:7.

[13] عبد القادر سعيد،ناقوس الخطر يدق ص1،http:www.google.com

[14] المرجع نفسه نقلا عن مجلة قمة الجزائر،العدد 01 مارس2005 ص 12.

[15] [15] مجلة اللغة والأدب، مجلة علمية أكاديمية يصدرها معهد اللغة العربية وآدابه، العدد السابع خاص بفهرس الرسائل الجامعية للشعبة الأدبية في الوطن العربي، إعداد: مختار بوعناني، ص:10

[16] المرجع السابق، ص 10

[17] المرجع نفسه، ص:10

[*] تنظر هذه الرسائل في أبوابها في مجلة اللغة والأدب العربي عدد6،1995.

[18] سمير حجازي، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة،ص:109.

[19] المرجع نفسه،ص:109،110.